كتب ابن المقفع

للأستاذ بشير الشريقي

١ — أبو محمد عبد الله بن المقفع كاتب بليغ مشهور امتاز بأسلوبه الجميل السهل الرشيق ، لا أعرف بين أدبائنا القدماء والمحدثين من هو أقدر منه على الكتابة والتعبير إلا عمرو بن بحر الجاحظ . كان ماهراً في تصوير طبائع الناس وأهوائهم وميولهم ، احتوت كتبه الحكمة والأدب والأمثال ، كما احتوت قواعد عامة في الادارة والسياسة والأخلاق

٢ — وهو فارسي الأصل اسمه في الفارسية « روزبة » ولد في « خوز » من أعمال خراسان حوالى سنة ١٠٦ هجرية . ونشأ في البصرة ، وقد ظل يدين بالمجوسية دين آبائه حقبة من الزمن ، ثم اعتنق الاسلام وقد بلغ السابعة والعشرين من عمره ، قال الهيثم بن عدى يذكر قصة اسلامه : « جاء ابن المقفع إلى عيسى بن على عم المنصور ، فقال له : قد دخل الاسلام في قلبي وأريد أن أسلم على يدك ، فقال له عيسى : ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس ، فاذا كان الغد فاحضر ؛ ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم ، فجلس ابن المقفع يرمزم على عادة المجوس فقال له عيسى : أترمزم وأنت على عزم الاسلام ؟ قال : أكره أن أبيت على غير دين »

٣ — وكما اشتهر عبد الله أنه كاتب كبير ، فقد اشتهر أنه مترجم قدير لا تلمح في ترجمته أثر العجمة ، فهو أول من اعتنى في الاسلام بترجمة الكتب القيمة ، ترجم كتب أرسطو الثلاثة في المنطق ، ونقل كتاب « التاج في سيرة أنوشروان » ، وقيل إن كتاب « كليلة ودمنة » كان باللغة الفارسية فنقله إلى اللغة العربية . قال الباقلاني : « ابن المقفع ينحط إذا كتب ويعلو إذا ترجم ، لأن له في الأولى عقله وفي الثانية كل العقول »

وقال الجاحظ : « كان ابن المقفع مقدماً في بلاغة اللسان والقلم والترجمة »

٤ — لابن المقفع من الكتب كتابا « الأدب الصغير والكبير » ، وكتاب « الدرة اليتيمة » ، وكتاب « التاج في سيرة أنوشروان » ، وكتاب « كليلة ودمنة » ؛ وكتب في المنطق . وهذه الكتب منها الموضوع ومنها المنقول ، فكتابا « الأدب الصغير والكبير » و « الدرة اليتيمة » من تأليف ابن المقفع ؛ أما كتب المنطق وكتاب « التاج » فهي منقولة عن الفارسية التي يجيدها الكاتب اجادة عجيبة ، واختلف أهل الأدب في حقيقة كتاب « كليلة ودمنة » ، فمنهم من قال إن ابن المقفع هو الذي وضعه ، وأنه نحله الهند القدماء لترغيب أهل زمانه بمطالعته ، ومنهم من قال إنه لم يضعه ، وإنما كان باللغة الفارسية ونقله إلى العربية

٥ — وبعد فأرى أن أحدث القارئ عن أشهر كتب ابن المقفع وأكثرها متعة وقيمة ، وهي كتاب « الدرة اليتيمة » وكتاب « الأدب الصغير » وكتاب « كليلة ودمنة » ، وسيقتصر بحثي على تعريف القارئ بهذه الكتب تعريفاً اجمالياً ، ثم على عرض أجمل ما فيها من صور أدبية واجتماعية مع شرح موجز :

٦ — الدرة اليتيمة التي لم يصنف في فنها مثلها تقع في ثمانين صفحة ، وتشتمل على فصلين كبيرين ، الأول منهما خاص بعلم السياسة ويحتوي على آراء قيمة حكيمة في ادارة الحكومة ، وواجبات الحاكم ، وعلى وصف دقيق لما يجب أن يكون عليه الأمير من القوة والعدل ، والبطش والحلم ، والثبات والعلم ؛ والثاني خاص بعلم الأخلاق ، يشتمل على قواعد دقيقة في التربية والاجتماع ، وعلم النفس وعلى نظرات صادقة في الناس وشؤونهم

حل ابن المقفع في « درته اليتيمة » مسألة كبيرة تلخص في كيف يتسنى للأمير أن يحفظ ملكه ويثبت سلطانه ، نقول : إن هذه المسألة قد لفتت نظر كاتب فلورنسي يدعى « مكيافيللي » في القرن الخامس عشر ١٤٦٩ — ١٥٢٧ ، فوضع كتاباً سماه « الأمير » شرح فيه هذه المسألة شرحاً لا يكاد يختلف في أصوله ومعانيه عن شرح ابن المقفع ؛ وكانت ضجة عظيمة حول الكتاب في الدوائر العلمية والسياسية الأوربية ، وكان أن أصبح مكيافيللي بفضل كتابه الذي اعتبره الغربيون أول كتاب في العلم السياسي ، من أعاظم رجال التاريخ ؛ ولما كان المجال لا يسع الكلام باسهاب اكتفي بقولي : إن من يطلع على « الدرة اليتيمة » يرى أن ابن المقفع بحث في أصول سياسة الملك بحثاً مستفيضاً ممتعاً ، وإلى القارئ صوراً من « الدرة اليتيمة » :

٧ — قال ابن المقفع :

أحق الناس بالتوقير الملك الحليم العالم بالأمور وفرض الأعمال ومواضع الشدة واللين والغضب والرضاء والمعالجة والأناة الناظر

في الأمر يومه وغده وعواقب أعماله

اعلم أن الملك اثنان : ملك حزم وملك هوى ، أما ملك الحزم فانه يقوم به الأمر ولا يسلم من الطعن والتسخط ولن يضر طعن القليل مع حزم القوى ، وأما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر

لا يضيعن الوالى التثبت عند ما يقول وعندما يعطى وعند ما يفعل ، فان الرجوع عن الصمت أحسن من الرجوع عن الكلام ، وإن العطية بعد المنع أجمل من المنع بعد الاعطاء ، وإن الاقدام على العمل بعد التأنى فيه أحسن من الامساك عنه بعد الاقدام عليه ؛ وكل الناس محتاج إلى التثبت ، وأحوجهم اليه ملوكهم الذين ليس لقولهم وفعلهم دافع ، وليس عليهم مستحث

إن الوالى لا حلم له بالناس إلا ما قد علم قبل ولايته ، فأما إذا ولى فكل الناس يلقاه بالتزين والتصنع ، وكلهم يحتال لأن يثنى عليه عنده بما ليس فيه

لا يمتنع الوالى وإن كان بليغ الرأى والنظر من أن ينزل عنده كثير من الأشرار بمنزلة الأخيار ، وكثير من الخائنة بمنزلة الأمناء ، وكثير من الغدرة بمنزلة الأوفياء ، ويغطى عليه أمر كثير من أهل الفضل الذين يصونون أنفسهم عن التصنع والتحمل

لتعرف رعيتك أبوابك التى لا ينال ما عندك من الخير إلا بها ، والأبواب التى لا يخافك خائف إلا من قبلها

احرص الحرص كله على أن تكون خبيراً بأمور عمالك فان السيء يفرق من خبرتك قبل أن تصيبه عقوبتك ، وإن المحسن يستبشر بعلمك قبل أن يأتيه معروفك

ليعلم الوالى أن الناس يصفون الولاة بسوء العهد ونسيان الود ، فليكابد نقض قولهم وليبطل عن نفسه وعن الملوك صفات السوء التى يوصفون بها

لا يولعن الوالى بسوء الظن لقول الناس ، وليجعل لحسن الظن من نفسه نصيباً موفوراً يروح به عن قلبه ويصدر به أعماله

من صحب السلطان لم يزل مروعاً . فساد الملك أضر على الرعية من جدب الزمان

٨ — « الأدب الصغير » رسالة قيمة فى علم تهذيب الأخلاق ، تقع فى أربعين صفحة كتبت بأسلوب جميل ساحر ، أسلوب فيه حلاوة وعليه طلاوة ، أسلوب تتجلى فيه الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة والمعانى التى إذا طرقت الصدور عمرتها ، وهى ممتلئة بأصدق الأنباء عن الروح الانسانية تبرهن على مقدرة ابن المقفع العجيبة فى تصوير طبائع الناس قال :

على العاقل ألا يحزن على شيء فاته من الدنيا أو تولى وأن ينزل ما أصاب من ذلك ثم انقطع عنه منزلة ما لم يصب ، وينزل ما طلب من ذلك ثم لم يدركه منزلة ما لم يطلب

وعلى العاقل أن يجبن عن الرأى الذى لا يجد عليه موافقاً وإن ظن أنه على اليقين

وعلى العاقل إن اشتبه عليه أمران فلم يدر فى أيهما الصواب أن ينظر أهواهما عنده فيحذره

من نصب نفسه للناس إماماً فى الدين فعليه أن يبدأ فى تعليم نفسه وتقويمها فى السيرة والطعمة والرأى واللفظ والأخدان . معلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم

الناس إلا قليلاً ممن عصم الله مدخولون فى أمورهم ، فقائلهم باغ ، وسامعهم عياب ، وسائلهم متعنت ، ومجيبهم متكلف ، وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل ، وموعوظهم غير سليم من الاستخفاف ، يترقبون الدول ، ويتماطون القبيح ، ويتعايبون بالفخر

لا يغمك صغر شأن امرئ من اجتباء ما رأيت من رأيه صواباً ، واصطفاء ما رأيت من أخلاقه كريماً ، فان اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذى استخرجها

أعدل السير أن تقيس الناس بنفسك ، فلا تأتى إليهم إلا ما ترضى أن يؤتى إليك

ومن ورع الرجل ألا يقول ما لا يعلم ، ومن الأدب أن يتثبت فيما يعلم

إقدام المرء على ما لا يدرى أصواب هو أم خطأ جماح ، والجماح آفة العقل

خمول الذكر أجمل من الذكر الذميم

لا يوجد الفخور محموداً ، ولا الغضوب مسروراً ، ولا الحر حريصاً ، ولا الكريم حسوداً ، ولا الشره غنياً ، ولا للملول ذا اخوان

ما التبع والأعوان والصديق والحشم إلا للمال ، ولا يظهر المروءة إلا المال ، ولا الرأى والقوة إلا بالمال ؛ ومن لا إخوان له فلا أهل له ، ومن لا ولد له فلا ذكر له ، ومن لا عقل له فلا دنيا ولا آخرة له ، ومن لا مال له فلا شيء له . والفقر داعية إلى صاحبه مقت الناس ، وهو مسلبة للعقل والمروءة ، ومذهبة للعلم والأدب ، ومعدن للتهمة ، ومجمة للبلايا ، ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بداً من ترك الحياء ، ومن ذهب حياؤه ذهب

سروره ، ومن ذهب سروره مقت ، ومن مقت أوذى ، ومن أوذى حزن ، ومن حزن ذهب عقله واستنكر حفظه وفهمه ، ومن أصيب فى عقله وفهمه وحفظه كان أكثر قوله وعمله فيما يكون عليه لا له

(٩) « كليلة ودمنة » كتاب بليغ يتضمن الجد والهزل ، واللهو والحكمة ، ألفه بيدبا الفيلسوف الهندى رأس البراهمة ، ونقله إلى العربية عن الترجمة الفارسية ، فى صدر الدولة العباسية (عبد الله بن المقفع) رأس الكتاب ، وقيل إن ابن المقفع هو الذى وضعه وأنه حمله الهند القدماء لترغيب أهل زمانه فى مطالعة كتب الحكمة والفلسفة التى لم يكونوا يأبهون لها إلا إذا أسندت للقدماء ، وهو موضوع على ألسن البهائم والسباع والطير ليكون ظاهره لهو للعوام وباطنه رياضة لعقول الخاصة ، وهو معروف متداول فلا داعى للافاضة فى بحثه

١٠ — ونتساءل : كيف كانت صورة عبد الله بن المقفع وهيئته ؟ كيف كان شكله وطراز جسمه ؟ هل كان جميلاً ظريفاً قوياً أم على العكس قبيحاً دميماً ضعيفاً ؟ ماذا كان يلبس ؟ هل كان يهتم بنظافة ثيابه وحسن هندامه ، كيف كانت حياته الخاصة كيف كان يعيش مع نفسه وأهله وخلصائه ؟ هل كان يميل إلى المرح والمداعبة والهزل ؟ هل أحب ؟ ما هى قصة حبه ؟ هل كان له زوجات وأولاد ؟ ما درجة اتصاله بأهله وذوى قرباه ؟ أى متاع الدنيا آثر عنده ؟

هذه أسئلة عظيمة الفائدة المتعة لابد وأن تعرض لذهن من يود أن يعرف ابن المقفع ويفهم أدبه ، ولكن أليس عجيباً ألا نستطيع أن نجيب على سؤال واحد منها وأن نكون على جهل تام بحياة أديبنا الخاصة ؟

ليس الذنب فى ذلك ذنبنا ، وإنما هو ذنب مترجمى أدبنا القدماء فهم قل أن اهتموا أثناء ترجمتهم لأديب أو شاعر بحياته النفسية الخاصة ثم بحياة محيطه ، هذه الحياة التى تكوّن الأديب وتطبع آثاره الأدبية البيانية بطابع الشخصية والذاتية

١١ — كل ما ذكره المترجمون عن حياة ابن المقفع الخاصة كان جملة واحدة أوردوها عرضاً أثناء تحدثهم عن شعوره الدينى أوردها صاحب الأغانى نقلاً عن الجاحظ قال : كان ابن الحباب ومطيع بن إياس ، ومنقذ بن عبد الرحمن الهلالى ، وحفص بن أبى وردة ، وابن المقفع ، ويونس بن أبى فروة ، وحماد عجرد ، وعلى بن خليل ، وحماد بن أبى ليلى الراوية ، وابن الزبرقان ، وعمارة ابن حمزة ، وجميل بن محفوظ ، وبشار المرعش ، ندماء يجتمعون على الشراب وقول الشعر ولا يكادون يفترقون ، ويهجو بعضهم بعضاً هزلاً وعمداً ، وكلهم متهم فى دينه »

نقول إن صحت رواية الجاحظ كان هؤلاء الشعراء والأدباء الذين كانوا يجتمعون على الشراب لقول الشعر ولا يكادون يفترقون هم الذين يمثلون الطبقة الخاصة من الناس التى ذكرها ابن المقفع فى قوله « وعلى العاقل أن يجعل الناس طبقتين متباينتين ويلبس لهم لباسين مختلفين فطبقة من العامة يلبس لهم لباس انقباض وانحجاز وتحرز وتحفظ فى كل كلمة وخطوة ، وطبقة من الخاصة يخلع عندهم لباس التشدد ويلبس لباس الأنسة واللطف والبذلة والمفاوضة ولا يدخل فى هذه الطبقة إلا واحد من ألف كلهم ذوفضل فى الرأى وثقة فى المودة وأمانة فى السر ووفاء بالاخاء

١٢ — مات ابن المقفع باكراً ، لم يتمتع بالحياة ؛ كان عمره ستة وثلاثين عاماً يوم قتلوه ؛ نعم لم يمت المسكين بل قتل حرقاً بالنار . يا لهول الجريمة ! !

أجمع مترجمو ابن المقفع على أن سبب مقتله كتابته أماناً لعبد الله [1] عم المنصور قال فيه :

« . . . ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله ؛ فنساؤه طوالق ، ودوابه حبس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون فى حل من بيعته » ، فلما وقف عليه المنصور عظم عليه ذلك وقال : من كتب هذا ، فقالوا له : رجل يقال له عبد الله بن المقفع يكتب لأعمامك ؛ فكتب الى سفيان بن معاوية بن مهلب بن أبى صفرة متولى البصرة يأمره بقتله ، ذكروا أن سفيان كان شديد الحنق على ابن المقفع لأنه كان يعيث به وينال من أمه ولا يسميه إلا بابن المغتلة »

وإنها لخسارة لا تعوض ، وإنها لجريمة لا تغتفر ، ورحم الله ابن المقفع

شرق الأردن — بشير السباعى

(١) هو عبد الله بن على ، خرج على المنصور بالشام والجزيرة فسير عليه أبا مسلم الخراسانى فهزم جموعه وفر عبد الله إلى البصرة مختبئاً بأخويه اسماعيل وسليمان ، فطلبه المنصور منهما فلم يجبياه إلا بأمان لعبد الله يعلمان شروطه ، فقبل ذلك المنصور ، فأمرا ابن المقفع كاتبهما أن يحرر أماناً يتضمن شروطه ، فكان أن كتب هذا الأمان الذى أفقده حياته